السلة

بقلم: عمر فتال - المغرب

حرك الطفل رأسه في توتر واضح ثم قال: (لا يمكنني يا سيدتي أن...) من غير أن يكمل ..

اقتربت منه السيدة، وفي شبه استعطاف راحت تكلمه: (قلت لك إن منزلي ليس بالبعيد، فكلها عشر دقائق على الأكثر، وتعود لتستأنف عملك...).

مط الصغير شفتيه قبل أن يقول: (أنا لا أرفض نقل سلتك، ما أرفضه هو الأجرة التي تنوين منحها إياي).

- لكنها مسافة قصيرة، وكما ترى فإن لدي سلة واحدة!

سادت فترة صمت، كانت خلالها عينا السيدة تجوبان الساحة الفسيحة طولا وعرضا، ولما فشلتا في العثور على عربة من العربات الصغيرة التي تتخذ تلك الساحة محطة لها، جددت المرأة الاقتراب من الطفل ثم بصوت خفيض قالت: (لم أر أقسى منك قلبا؟! فرغم كل توسلي، واستعطافي، وإخبارك بأنه لم تتبق معي سوى هذه الدراهم الثلاثة، لم تلب طلبي، وكأنني أكذب عليك..)

- أنا لم أكذبك، لكن الواجب الذي تعتزمين دفعه لي غير مناسب.

ابتسمت المرأة ابتسامة فاترة ثم أردفت تقول: (اعتبر ما قمت به مساعدة، وبعدها بإمكانك نقل حاجيات أخرى بالثمن الذي يرضيك، ففي الوقت متسع، والسوق ملأى بالمتسوقين، ولذلك انظر.. فها هي ذي العربات على كثرتها غائبة كلية).

نقر الطفل على العربة في شرود، وما لبث أن قال، وكأن أحدا يرغمه على الكلام: (اسمعي يا سيدتي لو كان الأمر بيدي ما ترددت في مساعدتك..)

دون أن ينهي الصغير كلامه تنهد من أعماقه، فيما عاودت المرأة ابتسامتها الفاترة، لتقول محركة رأسها: (يبدو أنك تلتمس كل الأعذار لكي لا تنقل سلتي.. وإلا أي أمر هذا وأية يدٍ هاته اللتين تتحدث عنهما.. فها هي ذي العربة أمامك، وها أنت حاضر، وكل ما عليك هو أن تتكل على الله بدون لف ولا دوران..)

قبل أن يتفوه الطفل لمعت دمعتان في زاويتي عينيه: (كفاك يا سيدتي اتهاما لي، فإن الأمر حقيقة ليس بيدي، لأنها تحاسبني كل مساء على ما حصلت عليه من نقود. وإذا حدث وكان ما كسبته قليلا حرمتني من الأكل، وهددتني بالطرد من المنزل..).

هم الطفل بالاسترسال في كلامه إلا أن السيدة قاطعته كالمصعوقة: (إلى هذا الحد وصلت الغلظة والقساوة بأمك؟! ما هذا يا رب ؟! أأحرم ابني من الأكل، لا .. بل أطرده من المنزل بسبب دريهمات؟! لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!!).

طرقت عبارات السيدة أذني الطفل بعنف، وما عتم أن قال، وقد انفرط عقد دموعه: (أرجوك يا سيدتي لا تلومي أمي، ولا تسيئي إليها فقد كانت لي نعم الأم، لذلك كانت لا تحب أن تراني متعبا، فلم أكن حينها أعرف شيئا اسمه العربة، والعناء من أجل الحصول على النقود..)

تغير وجه المرأة فقاطعته: (سامحني يا بني ما كنت أقصد الإساءة إلى أمك.. والآن دعنا من هذا كله، ضع السلة داخل العربة، فقد قررت أن أضيف إلى ثلاثة الدراهم موزة وتفاحة، فما ردك؟!).

مرر الطفل يده على جبينه قبل أن يقول: (وماذا تراني سأفعل بالتفاحة والموزة)؟!

أبانت المرأة عن أسنانها ثم قالت: (سترمي بهما في صندوق القمامة؟!.. ستأكلهما يا بني وإلا لماذا نشتري الفواكه؟!).

- أقصد يا سيدتي ماذا سأقول لزوجة أبي عندما يختلط ضربها لي بشتمها، فور إنهائها لعد ما حصلت عليه من نقود.

- قل لها: هذا ما استطعت أن أحصل عليه، أو العربات كثيرة.. عدها بأنك ستعمل غدا بحول الله أكثر وأكثر.. ألف عذر وعذر يمكن أن تعتذر به إليها.. وتكون بذلك قد أكلت تفاحة وموزة!!)

نظرت إليه فإذا هو منكس الرأس، أما في أعماقه فقد شرعت التفاحة والموزة تذكيان شرارة صراع مرير

- خذهما يا مروان لا تترك هذه الفرصة تضيع..

- ولكن هل أنت مستعد لتلقي ضرباتها وشتائمها..

- المهم أن آكلهما وبعد ذلك فليحصل ما يحصل..

- آه! لو علمت بالحقيقة، صدقني لن تتوانى في طردك من البيت، أنسيت ذلك الليل الزمهريري الذي طردتك فيه، وأبوك ينظر إليها دون أن يحرك ساكنا!..

- لا، لا داعي أبدا أن تضيع هذه الفرصة، فقد اشتقت إلى أكل التفاح والموز.. أما أمر الضرب والشتم، والتجويع فهذه أشياء اعتدتها.. فكر جيدا يا مروان فيما أنت مقدم عليه.. لا تتسرع..!

طال انتظار المرأة لرده، ولما ظهرت عربة في عرض الساحة الفسيحة، صاحت بأعلى صوتها: (أنت.. أنت يا صاحب العربة!!) انتبه مروان لنفسه وفي الحال صاح: (ماذا تفعلين يا سيدتي ؟! لماذا تنادين عليه ؟ فأنا موافق.. أريد ثلاثة دراهم ومعها تفاحة وموزة.. هات إذن سلتك). وضع الطفل السلة في العربة قائلا: (إذن ناوليني التفاحة والموزة!).

- ما هذا ؟ أتريد أجرتك قبل أن تؤدي عملك.. أسرع.. أسرع فكل مستلزمات وجبة الغداء هنا في هاته السلة، وارتح بالا فسأعطيك ما وعدتك به فور وصولنا..

احتكت ركبتا مروان، وتتابعت زفراته، وهو يحاول مجاراة السيدة في مشيتها، نظر إليها نظرات خاطفة، بعدها اضطرمت في دخيلته جذوة الصراع: (أي يوم هذا يا مروان ستأكل فيه إلى جانب البيض تفاحة وموزة دفعة واحدة.. وماذا لو أنك حملتهما في المساء إلى زوجة أبيك، فربما خففت بذلك من سورة غضبها عندما تعد النقود.. وهل تراها ستقبل بذلك؟! لا أظن! فأنت لا تعرف مدى حبها للمال.. وفوق هذا فإنها ستعتبر قبولي للتفاحة والموزة كأجرة تضييعا واضحا لفرصة الحصول على نقود أكثر.. لا لن أعطيهما إياها، سآكلهما

ولن أبوح لها بالسر فلتفعل ما بدا لها، فها هي ذي خمس سنوات تمضي على وفاة أمي العطوف، لم أتلق خلالها من زوجة أبي إلا الإهانة والذل، فلماذا لا أتحداها اليوم، وآكل في غيابها تفاحة وموزة ستعطيهما لي هذه السيدة كهدية، أما الدراهم الثلاثة فمن حقها أن تأخذها فقد ألفت أن أسلمها كل ما حصلت عليه..).

واصلت المرأة سيرها الدؤوب، فالتوت ساقا مروان عدة مرات، وتعالت زفراته، واختط العرق خطوطا على جبينه وخديه، وحينما جدد النظر إلى السيدة، لم يدر كيف اقتحمت حلبة الصراع المحتدم في أعماقه جملة وساوس:

- والآن افرض يا مروان أن السيدة لم تعطك التفاحة والموزة؟!

- أرجوك، دع عنك هذا الكلام!..

- كيف أدعه، وهي لم تسلمها إليك عندما طالبت بهما!..

- ولكنها قالت بأنها لا يمكنها أن تسلمني الأجرة، وأنا لم أنهِ مهمتي بعد ؟!

- أكثر من هذا فمن الذي أخبرك بأن في سلتها تفاحا وموزا؟!

- لا، بل هل يعقل أن تشتري سيدة التفاح والموز، وهي لا تملك النقود الكافية لدفع ثمن نقل حاجياتها على عربة صغيرة كعربتك؟!

- آه، يبدو مرة أخرى أنك نسيت ما قالته لي قبل لحظات عن اقتناء مستلزمات لم تكن تضعها في الحسبان، لذلك لم يتبق لها إلا ثلاثة دراهم ؟!..

بالله عليك انظر إلى السلة التي أمامك، هل يظهر منها شيء يدل على أن بها تفاحاً وموزاً ؟! وهل يمكن أن تبرر سكوتها هذا، وخطواتها المتسارعة إلا بشيء واحد: إنها تريد منك أن توصل سلتها إلى منزلها بالأجرة التي حددت..

اعتبر هذا صحيحا فهل تعتقد حينها أني سأسلمها السلة دون أخذ واجبي كاملا.. والله العظيم سوف أصرخ بأعلى صوتي إلى أن يجتمع الناس حولي، بعدها أطالبها بستة دراهم، لا بل أكثر من ذلك عشرة دراهم كاملة.. سوف ترى ماذا سأفعل بها، فمن غير المعقول أن تذهب إلى حال سبيلها، وتتركني في الليل وجها لوجه مع زوجة أبي.. لهذا فإنني أريد ثلاثة دراهم، وتفاحة وموزة كما اتفقنا وإلا...

- توقف! توقف!

التفت مروان، فإذا هو قد ابتعد خطوات عن السيدة.. أوقف العربة.. زفر زفرات متلاحقة.. حملت المرأة السلة، وفي الحال علا وجيب قلب الطفل، ولم تمض إلا هنيهة حتى ناولته الدراهم الثلاثة، وفي الوقت الذي أعطته التفاحة والموزة، فوجئت بصغيرها يصيح بأعلى صوته: أمي! أمي! أريد أنا الآخر تفاحة وموزة.. ابتسمت، ومن جديد امتدت يدها إلى السلة.. ناولتهما إياه، وعلى خده المورد طبعت قبلة حارة..

أراد مروان أن يدفع العربة لكنه لم يجد القدرة، وبدلا من ذلك طفق ينظر إلى السيدة، وهي تعبث بشعر ابنها الناعم ضاحكة مستبشرة.. ركز بصره فيهما، فذرفت عيناه الدموع، لحظتئذ فقط بدا له كما لو أن الموزة والتفاحة اللتين أعطتهما المرأة لابنها لا تشبهان اللتين في يده مطلقا!! ■